الأسئلة القرآنية ودورها في تقرير رؤية الإسلام للوجود

عبد الكبير حسين صالح* أبو نصر بن محمد شخار** أبو بكر محمد آدم أبو بكر***

ملخص البحث:

تعرض هذه الدراسة قضايا كبرى في الرؤية للوجود (the worldview) التي جاءت عن طريق الأسلوب التساؤلي في القرآن. فأسئلة القرآن كثيرة والمسائل التي تناولتها متنوعة لأغراض متعددة. يركز هذا البحث على ما ورد منها على صيغة الاستفهام من كلام الله سبحانه وتعالى موجها إلى العباد أو ما جاء منها على لسان رسله، في معالجة قضايا كبرى في الكون والتي تخطط للإسلام رؤياه للوجود. تشمل هذه الدراسة آيات تساؤلية تناولت الحقيقة والغاية من الخلق، وآيات تتعلق بالظواهر والسنن الكونية والتاريخية، وآيات تقرر حقيقة الإنسان وعلاقته بالطبيعة، ثم آيات تربط عالم الغيب بعالم الشهادة. يؤكد البحث أهمية الأسلوب التساؤلي في البحث وأهمية القضايا التي تتناولها هذا الأسلوب.

Abstract

This study presents major issues of the worldview which have come through questioning method in the Quran. The Quran contains many questions and it addresses various issues that are for diverse purposes. This research focuses on those statements which are in interrogatory

---

* أستاذ مشارك في قسم الدراسات الإسلامية العامة، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

** طالب في الدراسات العليا، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

*** طالب في الدراسات العليا، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا

form directed to the humankind, addressing the major issues in the universe that outline Islamic worldview. These selected verses include interrogatory verses which address the reality and the purpose of the creation; the verses related to phenomena and cosmic and historical patterns; the verses that determine true nature of the humankind and their relationship with nature; and the verses that connect the unseen and seen worlds. By studying a range of these verses, the research emphasizes the importance of the interrogatory research method and the importance of the issues addressed by this method.

Abstrak

Kajian ini membentangkan isu-isu utama pemandang dunia yang muncul melalui kaedah soal siasat di dalam al-Quran. Al-Quran mengandungi banyak soalan dan dengan tujuan untuk menangani pelbagai isu. Kajian ini memberi tumpuan kepada kenyataan yang berada dalam bentuk soal-siasat yang diarahkan kepada manusia, menangani isu-isu utama dalam alam semesta yang menjadi garis panduan pemandangan dunia Islam. Ayat-ayat yang dipilih ini termasuk ayat-ayat soal-siasat yang menangani realiti dan tujuan penciptaan; ayat-ayat yang berkait dengan fenomena dan corak kosmik dan sejarah; ayat-ayat yang menentukan sifat sebenar manusia dan hubungan mereka dengan alam semula jadi; dan ayat-ayat yang menghubungkan perkara-perkara ghaib dan yang boleh dilihat di dunia. Dengan mengkaji pelbagai jenis ayat, penyelidikan ini menekankan kepentingan kaedah penyelidikan soal-siasat dan kepentingan isu-isu yang dikemukakan oleh kaedah ini.

مقدمة

أثار القرآن قضايا كبرى في الوجود في قالب التساؤل: أسئلة عن المبدأ والمعاد، وأسئلة عن الخلق والخالق، وأسئلة عن حقيقة الإنسان والكون والوجود والأخلاق والحقيقة والمسؤولية وما إلى ذلك من القضايا المهمة التي نشطت عقول المفكرين على مر العصور. فالقرآن في ثنايا آياته وسوره يقرر هدفه الأسمى ومرماه الأعلى في قالب التساؤل. ويركز هذا البحث على ما ورد منها على صيغة الاستفهام من كلام الله سبحانه وتعالى موجها إلى العباد أو ما جاء منها على لسان رسله، والتي تتعرض منها لقضايا كبرى في الكون والتي تخطط للإسلام رؤياه للوجود.

والأسلوب التساؤلي من أقدم الأساليب في التربية والتعليم. ولقد أكد العلماء قديما وحديثا أهمية هذا الأسلوب؛ لأنه يثير اهتمام المخاطب ويساعده في التفكير أثناء بحثه عن الجواب. وقد يعبر عنه بـ"الأسلوب السقراطي"؛ لأن سقراط استخدمه كثيرا في فلسفته وفي التعليم والتربية[1]. ويرى الدكتور عبد الكريم بكّار في مقال له بعنوان "**إرشاد الأسئلة**" أن الأسئلة الكبرى هي وليدة التأمل العميق، والفقر في الأسئلة هو الفقر في الإجابات لأن السوية الذهنية المطلوبة لكل منهما واحد[2]، بل يرى بعض الفلاسفة الحديثيون أن إثارة السؤال الصحيح الوجيه أهم وأصعب من الإجابة له[3]،

---

[1] Barry S. Gower, (ed.) *Socratic Questions: New Essays on the Philosophy of Socrates and Its Significance* (London :Routledge, 1992).

[2] عبد الكريم بكّار، "إرشاد الأسئلة،" مقالات الدكتور عبد الكريم بكار، ص19، الموقع: .http://www.scribd.com/doc/43363598

[3] Hans-Georg Gadamer, *Truth and Method* (London: Continuum, 2006), pp. 362-363; Francisco J. Gonzalez, “The Socratic Hermeneutics of Heidegger and Gadamer,” in Sara Ahbel-Rappe and Rachana Kamtekar, *A Companion to Socrates* (Malden, MA: Blackwell Publishing), p. 433.

وأن أي سؤال فلسفي أو جاد إنما يتوقع تأكيدا صريحا لما هو ضمني في السؤال نفسه[4]. يقول الكاتب المصري المعروف نجيب محفوظ: "يمكنك معرفة ما إذا كان الرجل ذكيا من قبل أجوبته، كما يمكنك معرفة ما إذا كان الرجل حكيما من خلال أسئلته"[5].

ولقد استخدم القرآن هذا الأسلوب بكثرة، حيث ورد أكثر من مائتين وألف (1200)سؤال، يرسم خلاله خريطة الرؤية الإسلامية للوجود (the Islamic worldview). وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على أهمية امتلاك مهارات التساؤل والذي يقود بدوره للبحث عن الإجابة، حيث إنّ جدلية السؤال والبحث عن الإجابة عنه ترتقي بالمعرفة، وتساعد في اكتشاف سنن الله في الخلق وتحسين الفهم والإدراك، ليرتقي ويتقدم[6]. ولذلك يمكن القول، كما أكد الدكتور عبد الكريم أنّ الأسئلة هي من الوسائل الهامّة للفهم والتعلم واكتساب المعرفة، وهي أداة قرآنية تعمل على إيقاظ الوعي وزيادة الفهم وتنشيط الفكر، ويظهر هذا بوضوح في المسيرة العلمية والبحثية التي تعتمد دائمًا على حركة جدلية مستمرة بين التحديات والبحث عن حلول لها، فالتحديات تظهر في أشكال من الأسئلة والتساؤلات، والاستجابة

---

[4] Oswald Spengler, "The Interpretation of the Historical Process," in Patrick Gardiner, *Theories of History* (New York: The Free Press, 1959), p. 196.

[5] See Carol Sanford, "The Role of Questioning in a Learning Process: A Typology of Inquiry Methods and Results," p. 1 (Retrieved Nov 3, 2011 from http://www.interoctave.com/publishing/newlibrary/articles/RoleofQuestioning.pdf

[6] عبد الكريم بكّار، "إرشاد الأسئلة 2/2،" ص21، مقالات الدكتور عبد الكريم بكار، الموقع: http://www.scribd.com/doc/43363598.

تتبدى في محاولات اكتشاف الأجوبة الصحيحة لها[7]. وسوف نحاول إنشاء الله تعالى من خلال هذا البحث أن نتعرض لبعض الأسئلة القرآنية لنبين دورها في تقرير وتوجيه رؤية الإسلام للوجود. تشمل هذه النماذج آيات تساؤلية تناولت الحقيقة والغاية من الخلق، وآيات تتعلق بالظواهر والسنن الكونية والتاريخية، وآيات تقرر حقيقة الإنسان وعلاقته بالطبيعة، ثم آيات تربط عالم الغيب بعالم الشهادة، إضافةً إلى قضايا البعث، والعلم الإلهي، والحق، والنبوة والعبودية والألوهية، التي تأتي في ثنايا تلك الآيات المختارة. فالآيات المذكورة والنماذج المقدمة في البحث تأتي لغرض التوضيح لا الحصر. نرجو أن يلقي البحث الضوء على أهمية التساؤل في التفكير الإسلامي الناقد (Islamic Critical Thinking).

1. دلالات الاستفهام في القرآن الكريم:

ينقسم الكلام عند البلاغيين إلى خبري وإنشائي: الخبري هو الكلام المحتمل للصدق والكذب. الإنشائي هو: الكلام الذي يتوقف تحقق مدلوله على النطق به، كالأمر والنهي والدعاء والاستفهام. وينقسم الإنشاء إلى قسمين[8]:

أ- طلبي: ويشتمل على التمني والترجي والاستفهام، ويدخل فيه الأمر والنهي.

ب- غير طلبي: كأفعال المدح والذم.

فالاستفهام هو أسلوب من أساليب الإنشاء الطلبي. ويعرف بأنه: طلب حصول صورة الشيء في الذهن تصديقا أو تصورا، فإن كانت تلك الصورة هي وقوع نسبة بين الشيئين فحصولها هو التصديق، وإلا فالتصور[9].

---

[7] المرجع السابق.

[8] الخطيب القزويني، **الإيضاح في علوم البلاغة**، تحقيق الشيخ بهيج غزاوي (بيروت: دار إحياء العلوم، 1419هـ/1998م)، ص130.

وللاستفهام في اللغة أدوات منها: الهمزة (للتصور والتصديق). هل (للتصديق فقط). ما – مَنْ – أي – كم – كيف – أين – أنّى – متى – أيَّان (للتصور فقط). والحروف الموضوعة للاستفهام ثلاثة: الهمزة، وهل، وأم، وغيرها أسماء استفهم بها نيابة عن الهمزة التي هي أم الباب[10].

وأغلب أدوات الاستفهام والسؤال التي وردت في القرآن الكريم هي:

- الهمزة، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ [الفرقان: 45].
- هل، كقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلإِنسَانِ﴾ [الإنسان: 1].
- ما، كقوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: 75].
- مَن، كما يقول الله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: 255].
- متى، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: 48].
- أين، مثل قوله تعالى: ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: 22].
- كم، كما في قول الله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ [الأعراف: 4].
- كيف، يقول الله تعالى:﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ [التوبة: 7].
- أيان، كما يقول الله تعالى: ﴿ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ [الذاريات: 12].
- أنّ، في قول الله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ﴾ [آل عمران: 47].
- أيّ، كما في قول الله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن].

---

[9] محمد عبد الرؤوف المناوي، **التوقيف على مهمات التعاريف**، تحقيق محمد رضوان الداية (بيروت: دار الفكر المعاصر، 1410هـ)، ص59.

[10] بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، **البرهان في علوم القرآن** (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، 1957م)، ج2، ص347؛ محمد علي سلطاني، **الأدوات النحوية ومعانيها في القرآن الكريم**، (دمشق: دار العصماء، ط1، 1420هـ/2001م)، ص 219.

والبعض يفرق بين الاستفهام والسؤال: أن الاستفهام لا يكون إلا لما يجهله المستفهِم أو يشك فيه، أما السائل فيجوز أن يسأل عما يعلم وعن ما لا يعلم[11]. وعلى هذا فالاستفهام في خطاب الله الموجه إلى العباد ليس على حقيقته إذ لم يسبق علمه جهلٌ. وينقل الإمام الزركشي عن بعض الأئمة أن ما جاء على لفظ الاستفهام في القرآن من كلام الله تعالى إلى العباد إنما يقع على معني أن المخاطب عنده علم ذلك الإثبات أو النفي، فيستفهم عنه نفسه لتخبره به؛ "فإن الرب تعالى لا يستفهم خلقه عن شيء وإنما يستفهمهم ليقررهم ويذكرهم أنهم قد علموا حق ذلك الشيء"[12].

والسؤال قد يرد مجازا على غير حقيقته للدلالة على معانٍ بلاغية عديدة، بحيث إن المستفهِم لا يرجو من سؤاله حصول علم لم يكن قبل السؤال، والسؤال من الله تعالى هو من هذا الصنف طبعا، وقد أحصى علماء اللغة أغراضا مجازية كثيرة يمكن أن يستعمل السؤال لها، ومن تلك الأغراض ما يأتي:

- **الأمرُ**، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنْتَهُونَ﴾ [المائدة:91] أي اِنْتَهُوْا.
- **النهيُ**، كقوله تعالى: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:13] أي لا تخشوهم.
- **التسويةُ**، كقوله تعالى: ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس:10] أي هم سواء.

---

[11] أبو هلال العسكري، **معجم الفروق اللغوية**، (قم: مؤسسة النشر الاسلامي، ط1، 1412هـ)، ص48.

[12] الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، ج2، ص327.

- **النفي**، قال تعالى: ﴿فَمن يَهدي من أضلَّ اللَّهُ﴾ [الروم:29] أي: لا هاديَ لمن أضلَّ اللهُ. ومنه قوله جلّ ثناؤه: ﴿أفأنت تُنقِذُ مَن في النار﴾ [الزمر:19] أي لستَ منقذَهم.
- **الإنكارُ**، كقوله تعالى: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ﴾ [الأنعام:40].
- **التقريرُ**، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:1] أي: لقد شرح الله صدرك.
- **التهويلُ**، كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ [الحاقة:3].
- **الاستبعادُ**، كقوله تعالى: ﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ [الدخان:13].
- **التعجّبُ**، كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان:7].
- **التهكّمُ**، كقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ [هود:87].
- **الوعيدُ**، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ [الفجر:6].
- **الاستبطاءُ**، كقوله تعالى: ﴿مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة:214].
- **التنبيهُ** على الخطأ، كقوله تعالى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة:61].
- **الاسترشاد** نحو: ﴿أتجعل فيها من يُفسد فيها﴾ [البقرة:30].

- **التكثير**، نحو قوله جلّ ثناؤه: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد:13][13].

كل هذه الدلالات تجعل السؤال أداة قوية لبيان المفاهيم لما يكتنِزه من المعاني الكثيرة، وقد سلك العلماء مسالك شتى في دراسة أسئلة القرآن الكريم، من ذلك:

1- منهج النحاة: وهو منهج يتميز بالتركيز على النظرة النحوية لأدوات الاستفهام ودلالاتها دون التعرض إلى الأغراض البلاغية إلا لِماما، ومنهم سيبويه.

2- منهج المفسرين: وهم يذكرون المعاني البلاغية للاستفهام مع ربطها بسياق الآيات، مع بيان المعاني الإضافية التي تكتنزها، ومن أولئك الإمام الزمخشري.

3- منهج المؤلفين في علوم القرآن: كالزركشي والسيوطي، ويعتمد منهجهم على السرد والتقسيم دون التحليل والتمثيل إلا قليلا.

4- منهج البلاغيين: كالجرجاني في الدلائل والسكاكي في مفتاح العلوم، وهو منهج يعتمد على التحليل البلاغي والبحث في الدلالات والقرائن[14].

ولا ريب أن تلك المناهج تتكامل وتتآزر لبيان المعنى القرآني وأبعاده المختلفة، وللوصول إلى فهم أعمق للمقصود الإلهي من النص، ولكن التوجه البلاغي قد يمدنا بمعانٍ أعمق لأسئلة القرآن الكريم وأبعادها الفلسفية، يقول صباح دراز: "ونعتقد أن الاستفهام القرآني وغيره يتسع لمناهج عديدة تتآلف ولا تتنافر، بيد أن ما نميل إليه علاج البلاغة القرآنية من خلال الأغراض والقضايا ما أمكن، ويترتب على ذلك عقد الموازنات الأسلوبية التي تتكشف فيها الدلالات، وتتكيف فيها الصناعة على نحو يناسب الأنساق المختلفة أو المتقاربة، ويعين على استشفاف ما تمتلئ به التراكيب من

---

[13] انظر أحمد بن فارس بن زكريا، **الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها**، تحقيق عمر فاروق الطباع (بيروت: مكتبة دار المعارف، ط1، 1993م)، ص45.

[14] صباح عبيد دراز، **الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم** (القاهرة: مطبعة الأمانة، ط1، 1406هـ/1986م)، ص107-108.

شحنات شعورية أو ما يستكن في طواياها من ظلال وإلهام وهذا ادعى إلى التحليل الفني"[15].

2. وحدة الحقيقة

إن الأسئلة القرآنية تؤسس نظرة إسلامية للحقيقة، التي ينسجم فيها العقل والوحي، ويدعم أحدهما الآخر من غير تناقض ولا اضطراب[16]، فهذه الأسئلة تجلِّي لنا التصور الإسلامي لمنهجية التفكير المنفتحة على النقد والبحث عن الحقيقة، فالحق لا يخشى السؤال، والحق لا يضعفه السؤال السليم، لذلك تجد القرآن بأسلوبه الاستفهامي يحفز الفكر دومًا، ويدفعه إلى مزيد من النقد والنظر.

وورود مئات الأسئلة في القرآن الكريم ليقرر من غير لبس أن حجة الله تعالى بالغة، وأنها مفتوحة للنظر والفحص وليست نسقا دغمائيا، يُطلب من السامع التسليم لها دون فهمها ومساءلتها، لذلك تجد الدعوة إلى التعقل والتفكر والتذكر والتدبر تملأ جنبات القرآن الكريم: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء:10]، ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [المؤمنون:80]. فالقرآن الكريم يعرض تصوراته في قالب عقلاني يفهمه العقلاء كلهم، ويثير ملكة التعقل بتلك الأسئلة، فنجد أن الله تعالى يحرك عملية النقد المبنية –مثلا– على المقارنة وعدم المساواة بين مختلفين، فيقول: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ. وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل:17-18]، فهل يستوي من يَخلق ومن يُخلق؟ ومن هو أحق بالعبادة؟ ومن أدعى إلى الالتجاء والاعتصام؟ وهل

---

[15] المصدر السابق، ص107.

[16] حول مبدأ وحدة الحقيقة انظر: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، **إسلامية المعرفة – المبادئ العامة، خطة العمل، الإنجازات** (الرياض: الدار العالمية لفكر الإسلامي، ط2، 1413هـ/1992م)، ص89.

يستوي من سخر ما لا يعد ولا يحصى من النعم مع من لا يملكون شَرْوَى قطمير؟... أسئلة تحرك العقول الراكدة الآسنة المتعفنة بخرافات الشرك وأساطيره، التي اتخذت مما تصنع من الأحجار آلهةً تتوسل إليها! ويزيد القرآن الكريم إمعانا في تحفيز حاسة النقد إذ يقول: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام:14].

إن هذه الأسئلة الكثيرة في القرآن الكريم وربطها بالآيات الكونية لِيُثبت أن مصدر القرآن الكريم وخالق الكون واحد، ويثبت كذلك الوحدة الموضوعية بين الآيات الكونية والآيات القرآنية، والتكامل بين العقل والوحي والحس، فالقرآن يحيل إلى الآيات الكونية، والآيات الكونية تحيل إلى القرآن في منهج استفهامي متكامل يدعو إلى التقصي والاكتشاف بحثا عن الحقيقة. وهذا المنهج يربي في المسلمين نظرة متكاملة للحياة، فلا هي رهبانية منغلقة عن الكون والعقل، ولا مادية غافلة عن الوحي، فنجد الإحالة القرآنية إلى الكون في آيات كثيرة مثل قوله تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:101]، ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [يونس:31]، وكذلك نجد الإحالة الكونية إلى القرآن مثل قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت:53].

ومنهج السؤال في القرآن الكريم يرفع من وعي العقل وقدرته على النقد والنظر، فالقرآن الكريم يُعتبر ثورة معرفية فكرية على المفاهيم المشوهة عن الإله والكون والإنسان، وهذه الثورة المفهومية تستدعي غرس وعي عال من النقد لدى

المخاطَبين، مساعدةً لهم على نقد موروثهم الفكري بمساءلته ونقده وفضح زائفه وتثمين طيِّبه، فالله تعالى مثلا يقول سائلا المشركين: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى﴾ [النجم:19-23]، ويقول ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:170]، فالله تعالى ينبههم إلى غرابة ذلك القرار باتباع الآباء مطلقا، فماذا لو كانوا على غير الهدى؟![17] وهذا الاستفهام التعجبي سيحيي القلوب السليمة لتراجع منهجها في الحياة، وتتجه إلى نقد ذلك الموروث الآبائي. وفي هذا الصدد يقول السيد رشيد رضا: "ما يكون من فساد التربية العقلية كما هو حال المقلدين الذين لا يستعملون عقولهم، وإنما يكتفون بما عليه قومهم من الأوهام والخيالات، ويرين على قلوبهم ما يكسبونه من السيئات، وما يكونون عليه من التقاليد والعادات، ولا يعتنون بما أمر الله به من تمزيق هذه الحجب وإزالة هذه السحب، للوقوف على ما وراءها من مخدرات العرفان ونجوم الفرقان وشموس الإيمان، بل يكتفون بما حكى الله عنهم في قوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ حتى يجيء اليوم الذي يقولون فيه: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ﴾[18].

ومما يؤكد النظرة الإسلامية لوحدة الحقيقة أن منهج السؤال في القرآن الكريم يدفع العقل إلى التفكير السليم باستخدام أساليب الحجاج المنطقية التي تضبط سير العقل؛ كقياس الأولى وعدم التسوية بين متفرقين أو التفريق بين مختلفين، ومبدأ

---

[17] محمود بن عمر الزمخشري، **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ط.)، ج1، ص239.

[18] محمد رشيد بن علي رضا، **تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)** (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م)، ج1، ص130.

العلية، ودلالة الأثر على المؤثر، والمقدمات المنطقية وغير ذلك، وبتحفيز المخاطَب بالسؤال سيكون مضطرا إلى المرور على تلك القواعد الاستدلالية ليرسوَ على نتيجة مقبولة، فالله تعالى مثلا يقول: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ [الطور:35-37]، يقول فخر الدين الرازي مبينا التراتب العقلي الاستدلالي في هذا الاستفهام: "المسألة الرابعة: ما الوجه في ذكر الأمور الثلاثة التي في الآية، نقول هي أمور مرتبة، كل واحد منها يمنع القول بالوحدانية والحشر، فاستفهم بها وقال أَمَا خلقوا أصلاً؟ ولذلك ينكرون القول بالتوحيد لانتفاء الإيجاد وهو الخلق وينكرون الحشر لانتفاء الخلق الأول، أم خلقوا من غير شيء أي أم يقولون بأنهم خلقوا لا لشيء فلا إعادة كما قال ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً﴾... وعلى قول من قال المراد منه أم خلقوا من غير شيء أي من غير خالق، ففيه ترتيب حسن أيضاً وذلك لأن نفي الصانع إما أن يكون بنفي كون العالم مخلوقاً فلا يكون ممكناً، وإما أن يكون ممكناً لكن الممكن لا يكون محتاجاً فيقع الممكن من غير مؤثر وكلاهما محال... وأما بالنسبة إلى التوحيد فهو رد عليهم حيث قالوا الأمور مختلفة واختلاف الآثار يدل على اختلاف المؤثرات وقالوا ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً واحِداً﴾، فقال تعالى: ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ حيث لا يقدر الخباز على الخياطة والخياط على البناء وكل واحد يشغله شأن عن شأن"[19].

وهذا التناسق بين آيات الوحي ومنطق التفكير العقلي يجعلنا نقول بأن الحقيقة في الإسلام وحدة متكاملة تتقارب إليها كل المناهج السليمة؛ العقلية والتجريبية والغيبية.

---

[19] محمد بن علي الفخر الرازي، **مفاتيح الغيب**، (بيروت: دار الإحياء العربي)، ج28، ص224.

وفي سياق آخر يقول تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾[الأنعام:164]. فالله تعالى يسأل القوم: من يحفظكم ويحرسكم بالليل إذا نمتم وبالنهار إذا تصرّفتم غير الله تعالى؟ ويحفظكم من عذاب ربكم إن نزل بكم؟[20] وهو استفهام إنكاري وتقريعي،[21] فما فائدة معبودٍ لا يطعمكم ولا يسقيكم ولا يحفظكم إذا أحاطت بكم الأخطار؟ ومن أحق بالعبادة؛ أإله يَخلق ويُطعِم ويَحفظ أم معبود يُخلق ويُطعَم ويُحفظ، أم أصنام لا ينفع ولا يضر نفسه فضلا عن غيره ولا يسمع حتى دعاء معبوديه: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ [الشعراء:72-73]، ويرد هنا سؤال غرضه التعجب من الغفلة عن هذه الحقيقة: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه:80]. وتتوالى الاستفهامات في نفس الموضوع على أوجه مختلفة من ذلك: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُون﴾ [الزمر:28]، فهل من معبود غير الله يكشف الضر أو يحجز رحمة الله تعالى؟ ويأخذ الاستفهام أحيانا منحى استغرابيا! من تلك المعبودات الجامدة ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ﴾ [الأعراف:195].

وأسلوب السؤال في القرآن الكريم لا يقف عند عتبة الاستدلال العقلي والتجريبي فحسب، بل يتقدم خطوة أعمق، ليلامس شعور المخاطَب ووجدانه وفطرته وإنسانيته، فالسؤال –بوصفه من الأساليب الإنشائية التي لا تحتمل الصدق والكذب–

---

[20] أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، تحقيق أحمد محمد شاكر، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ/2000م)، ج18، ص446.

[21] محمد الطاهر بن عاشور، **التحرير والتنوير** (تونس: دار سحنون، 1997م)، ج17، ص73.

يدفع المخاطَب إلى كلام نفسي يحاول فيه إيجاد إجابة مقنعة، وفي خضم ذلك يحصل صراع نفسي داخلي بين الأهواء التي تدفعه إلى الإبقاء على الموروث ولو كان خطلا وبين الخطاب العقلي الموضوعي الذي يحاول نقد الموجود وبلوغ الصواب. وهذا فيه إمعان في إقامة الحجة؛ حتى إن أصحاب الجحيم سيشهدون على أنفسهم يوم الدين ويقولون: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك:10].

ومن أمثلة هذا الشعور الذي يولده السؤال المنطقي سؤال سيدنا إبراهيم لقومه بعد أن كسر أصنامهم ونسب ذلك إلى كبيرهم فقال: ﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ فكانت الهزة النفسية: ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ﴾، ولكن ما لبثت ومضة الحق إلا قليلا حتى خبت مرة أخرى: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ﴾ وبعد هذه النكسة سدد لهم سيدنا إبراهيم سؤالا أشد وطءًا: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾؟ وبظهور تعنتهم كانوا حينئذ أحق بجواب رادع ودعوة زاجرة إلى التعقل: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء:63-67]. يصف سيد قطب هذه المحاورة العقلانية المبنية على أسلوب الاستفهام بقوله: "ويبدو أن هذا التهكم الساحر قد هزهم هزاً، وردهم إلى شيء من التدبر والتفكر: ﴿فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون﴾، وكانت بادرة خير أن يستشعروا ما في موقفهم من سخف، وما في عبادتهم لهذه التماثيل من ظلم. وأن تتفتح بصيرتهم لأول مرة فيتدبروا ذلك السخف الذي يأخذون به أنفسهم، وذلك الظلم الذي هم فيه سادرون، ولكنها لم تكن إلا ومضة واحدة أعقبها الظلام، وإلا خفقة واحدة عادت بعدها قلوبهم إلى الخمود: ﴿ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون﴾"[22].

---

[22] سيد قطب، **في ظلال القرآن**، (بيروت: دار الشروق، ط13، 1987م)، ج5، ص162.

ووحدة الحقيقة في الإسلام ذهبت مذهبا أبعد لتعتبر الفطرة البشرية دليلا على الحقيقة، فالإنسان لما يحوق به الضر من كل جانب لا يلجأ إلا للذي خلقه، ففي تلك اللحظة الرهيبة تنقشع الأهواء والأنانيات، ولا يبقى إلا نداء الفطرة الخالص ينبثق من أعماق النفس، والله تعالى نبّه إلى هذا الأمر في أكثر من آية، واستخدم في بعضها الأسلوب الاستفهامي ليدفع الإنسان إلى تذكر ذلك الموقف واستحضار ملابساته، ومساءلة نفسه لماذا رجعت إلى الله في تلك اللحظة العصيبة ثم نكست بعد ذلك؟

ومن ناحية أخرى يقول تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ. قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:64]، والغرض من هذا الاستفهام التقرير والتوبيخ[23] على الكفر والشرك رغم علمهم بأنهم حين الشدة لا يرجعون إلا إلى الله تعالى، وقد يكون المراد النفي أي لا ملجأ لكم إلا لله تعالى وقت الضر فلِمَ تعرضون عنه وقت الفرج. ومثله قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل:62]، وهذه الآية وردت في سياق الجواب على السؤال: ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل:59]. وبعد تعداد جملة من الآيات الكونية التي تبين تفرد الله تعالى بالخلق والإبداع؛ جاءت هذه الآية لتؤكد وجود البذرة الفطرية التي تعرف الله تعالى إلها صمدا، ولا تتبدى إلا عندما ينقشع ضباب الأهواء عنها وقت الشدة، فإذا أحاط البلاء بالإنسان ولم يجد منفذا ولم يجد في أوليائه ولا وسائله معينا حينئذ يلجأ إلى خالقه المهيمن، والسؤال في هذه الآية يثير في الإنسان عمقه الباطني ليلامس الفطرة النقية التي لا تزال راسخة في مكامنه.

---

[23] السمين الحلبي شهاب الدين أبو العباس، **الدر المصون في علم الكتاب المكنون**، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1994م) تفسير هذه الآية.

وفي الأخير يكرر القرآن أن هذه الحقيقة التي أشار إليها القرآن هي الحقيقة المطلقة، وهي نفس الحقيقة التي أشارت إليها الكتب السماوية الأخرى قبل القرآن ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف:45]، فالحق واحد، لا يتعدد ولا يتجزأ، ولا شيء بعد الحق إلا الضلال كما قرر القرآن ﴿ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [يونس:32]. فالله هو الحق ويهدي إلى الحق وهو مصدر الحقيقة. والحق أحق أن يتبع وإن كثر أصحاب الباطل. هنا يتساءل القرآن كيف يعدل الإنسان عن اتباع الحق ويفضل الهوى والضلال علي الحق: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس:35]، ولا ينفع الظن في موقف اليقين كما لا ينقلب الظن يقينا لتراكمه أو لكثرة المنتمين إليه على مر العصور: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنّاً إَنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللّهَ عَلَيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس:36] فالتصور للوجود ينبغي أن يبنى على الحق الثابت، ولاسيما في الغيبيات.

3. السنن الإلهية

إن المتتبع لموارد الأسئلة في الآيات الكونية في القرآن سيجد أن أغلبها ورد في سياق التدليل على الوحدانية أو القدرة على البعث، وهي بذلك تساهم في رسم تصور الإسلام للكون، وهو التصور المتمركز حول وحدانية الله تعالى وكمال صفاته، وأن الكون ليس إلا آيات ودلالات وعلامات على صفة الخلق والإتقان والإبداع والتسخير وغيرها، والتي تجعل المؤمن متوائما مع الكون منتفعا به، لا مصارعا له، ممتهنا لموارده، ساعٍ فيه بالفساد. كما أن هناك آيات أخرى تلفت النظر وتثير الانتباه حول تجارب الأمم السالفة، وضرورة الأخذ بالاعتبار من قبل الأمم اللاحقة.

- السنن الكونية:

لقد وردت العديد من الآيات القرآنية في صيغة السؤال وفيها تقرير حقيقة الكون. وإن كانت أغلب الأسئلة سيقت أساسا لإثبات الألوهية والقدرة على البعث فإنها تؤسس -على التوازي- لمنهج متكامل للتعامل مع الكون، تعاملٌ قوامه التسخير وشكر النعمة، ونظرةٌ مبنية على الفكر السَّنَني الذي يرى أن الكون مخلوق وفق جملة قوانين؛ الاضطلاعُ بها اضطلاعٌ بالتسخير.

ومسألة الألوهية والوحدانية من أظهر المسائل دليلا في الكون، فكل مخلوق يشهد بوجود خالق له، فدقةُ الخلق واتساعه وتنوعه وإبهاره يستدعي وجود خالق عظيم حكيم محيطٍ بكل شيء علمُه، مستوعب كل شيء قدرتُه، ويأتي الأسلوب الاستفهامي ليوجِّه المخاطَب إلى تلك المناطق التي تتجلى فيها قدرة الخالق وإبداعه، والاستفهام يأتي لاستنكار الغفلة عن المعبود الحق لمعبود لا ينفع ولا يضر، وكذلك للتعجب والتقرير. فإن كان الله تعالى خالقًا لكل شيء أفيقبل عقل سليم أن يُساويه بمن لا يخلق ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:17-18].

يبيِّن القرآن الكريم أن الكون خلقٌ متقن بديع، ومن مظاهر الإتقان دقة القوانين التي تحكمه وتسيره، ووجود السنن والقوانين ركن ركين من تسخير الكون للإنسان، فالله تعالى يسائل المشرك عن معبوده وماذا يمكنه أن يفعل أمام هذا الخلق الإلهي المتقن المبدع الباهر، وهذه الأسئلة ترفع عتبة التحدي حتى إن المُنكِر ليبقى مدهوشا! فلنسمع إلى هذه الآية العجيبة المفعمة بالتجليات الربانية الراقية: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُور﴾ [الملك:3] والسؤال يبقى مفتوحا إلى يوم الدين، ولا يزال الإنسان يكتشف السنن التي تثبت له الدقة في الخلق.

والسؤال في هذه الآية الكريمة يحثّ الناس على التفاعل مع هذا الكون وملاحظة حركاته وسكناته وقوانينه، فهي نافذة لمعرفة الله تعالى ودلائل أسمائه الحسنى، وما يستبطنه السؤال من التحدي يجعله يثير مزيدا من الاهتمام لدى المخاطب، يقول الشهيد سيد قطب: "وأسلوب التحدي من شأنه أن يثير الاهتمام والجد في النظر إلى السماوات وإلى خلق الله كله. وهذه النظرة الحادة الفاحصة المتأملة المتدبرة هي التي يريد القرآن أن يثيرها وأن يبعثها. فبلادة الألفة تذهب بروعة النظرة إلى هذا الكون الرائع العجيب الجميل الدقيق، الذي لا تشبع العين من تملي جماله وروعته، ولا يشبع القلب من تلقي إيحاءاته وإيماءاته؛ ولا يشبع العقل من تدبر نظامه ودقته. والذي يعيش منه من يتأمله بهذه العين في مهرجان إلهي باهر رائع، لا تخلق بدائعه، لأنها أبداً متجددة للعين والقلب والعقل. والذي يعرف شيئاً عن طبيعة هذا الكون ونظامه كما كشف العلم الحديث عن جوانب منها يدركه الدهش والذهول"[24]. وبنفس الأسلوب يوجه الله تعالى أنظارنا إلى أنفسنا: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُم مِّن مَّاءٍ مَهِينٍ. فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ. إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ. فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ [المرسلات:20-22].

ويوجه المولى -عز وجل- كذلك إلى إبداعه في الخلق، فقد كان قادرا أن يخلق لونا واحدا وصنفا واحدا، ولكنه تعالى أبدع ونوّع: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُه كَذَلِكَ﴾ [فاطر:27-28].

عبر هذه الآيات التساؤلية دعا القرآن العقل الإنساني إلى التدبر والتفكر في آيات الله في هذا الوجود، وذلك للتعرف على قدرة الخالق المعجزة، وتفرده بالخلق والتدبير، وذلك وصولاً إلى إفراد الله بالوحدانية والعبادة. فالقرآن إلى جانب

---

[24] سيد قطب، **الظلال**، ج7، ص26.

الوجدان، يخاطب عقل الإنسان ويستنهضه للتفكر والتدبر والتأمل، لتتآزر جوانبه كلها للوصول إلى الحقيقة، فهو يخاطبه ليتدبر في مظاهر الخلق العديدة[25]، قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ﴾ [الطور:35-36].

والقرآن يخاطب العقل ليتجرد في تفكره وليصل إلى نتيجة موضوعية علمية، التي يدل عليها كل مافي السماوات والأرض من شئ، ويتخلى عن الهوى الذي يقود إلى الضلال، وعن الكبر الذي يبعد الإنسان عن الطريق المستقيم، فيجد الحقيقة بارزة أمامه تملأ اليقين[26]. فعن بداية خلق الكون يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ. وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ. وَجَعَلْنَا السَّمَاء سَقْفاً مَّحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ. وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء:30-33].

إنها دعوة عبر الأسلوب التساؤلي للتفكر والتأمل في الكون المعروض للأنظار، وهي دعوة للقلوب الغافلة عن آيات الله العظمى والتي فيها مايحير العقل حينما يتأمل الإنسان في الكون ببصيرة مفتوحة وقلب واعي وحس يقظ. فالتقرير الذي ورد في بداية الآية يشير إلى أنّ السماوات والأرض كانتا رتقًا ففتقتا، وهذه مسألة جديرة بالتأمل، وكلما تقدمت النظريات الفلكية في محاولة تفسير الظواهر الكونية كلما كانت في استجابة لتساؤلات القرآن الكريم وتحقيق لإرادة المولى عزّ وجل في التفكر والتأمل ومن ثم تذكر الخالق المبدع.

---

[25] عبد الكريم نوفان عبيدات، **الدلالة العقلية في القرآن ومكانتها في تقرير مسائل العقيدة الإسلامية** (الأردن: دار النفائس، 2000م)، ص90.

[26] عبيدات، **الدلالة العقلية في القرآن ومكانتها في تقرير مسائل العقيدة الإسلامية**، ص91.

وشطر الآية نفسها يقرر حقيقة أُخرى وهي حقيقة خطيرة وهامة حيث قررت أنّ الماء هو مهد الحياة الأول وهو ماتوصل إليه العلم بعد البحث والإجتهاد، ويُعد هذا استجابة لدعوة القرآن التساؤلية سواء علم بذلك الباحثون أم لم يعلموا.ولقد توصل العلماء على أنّ الماء يتمدد بالتبريد مخالفًا لكل المواد الأخرى، حيث تنكمش بالتبريد، كما عجزوا عن تحضيره في المعمل بالرغم من ان تركيبه بسيط حيث يتركب من ذرتي ايدروجين وذرة اكسجين، وفي الآية التي تليها تقرير يؤكد أنّ الجبال الرواسي تحفظ توازن الأرض فلا تميد ولا تضطرب وهي دعوة للبحث والتفكر والتأمل والدراسة لزيادة المعرفة والتوجه إلى من صمم وخلق وأودع هذه المخلوقات هذا التنظيم المدهش.

لقد وجه القرآن عبر طائفة من الأسئلة دعوة صريحة للإنسان إلى التأمل والتفكر والتدبر العقلي فيما حوله من كائنات حية وغير حية. فمحاولة الإجابة على هذه التساؤلات هي التي قادت إلى علوم الحيوان، وعلوم الفلك، وعلوم الأرض وغيرها من العلوم التي تفرعت وتشعبت في شتى المجالات. قال تعالى: ﴿ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنًا ثم جعلنا الشمس عليه دليلًا ثم قبضناه إلينا قبضًا يسيرًا﴾ [الفرقان:45-46]. وقال تعالى: ﴿أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾ [الرعد:41]. ونلاحظ أنّ الآيات أعلاه هي كذلك نموذج يوضح دعوة القرآن للإنسان إلى النظر العقلي والتفكر، وهي تشير بوضوح إلى ضرورة أن يقف الإنسان أمام كل ظاهرة حوله مشاهدًا لها بعين بصيرة مدققة ومتأملة، ويدرسها دراسة متعمقة ليقف على حقائق صنع الله.

وقد ذكرت الدكتورة كوكب في كتابها "أسس التفكير السليم ومناهجه في الكتاب والسنة": "كلما تفرّس الإنسان في ملاحظاته وأبحاثه، ودقق في دراسة ظاهرة ما أو مخلوق ما فإنّه يقف على حقيقة هذه الظاهرة أو هذا المخلوق، ويدرك

تفصيلات جزئية لا يعلمها إلا الباحث الدقيق تؤكد له بما لا يدع مجالًا للشك أنّ ذلك صنع الخالق القادر القوي المتين الخبير البصير، وأنّ لا مجال للصدفة والعشوائية ولذلك قال تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ [فاطر:28]. ولماذا يخشى العلماء الله؟ لأنهم لشدة تعمقهم في دراسة الأشياء وبحثها دراسة متخصصة أتاحت لهم الوقوف على تفصيلات دقيقة تبهر عقولهم ويشاهدون فيها حكمة الصنعة ودقتها واحكامها كميًا وكيفيًا فيحملهم علمهم هذا إلى التسليم بقدرة القادر وعظمته فيخشونه ويعرفون له سبحانه وتعالى قدره بعد ان عرفوا قدرته"[27].

- **السنن التاريخية:**

وكذلك عبر طائفة أخرى من الأسئلة وجه القرآن العقل إلى تدبر السنن الربانية التي تجري في حياة البشرية، وأنّ هذه السنن لا تتبدل ولا تتغير، وعلى العقل أن يستثمر هذه السنن لإقامة المجتمع الصالح الذي يتمشى مع مقتضياتها ومصالحها، دون أن يصطدم معها. قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة:26]، ﴿أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كانت عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ [الروم:9]، قال تعالى: ﴿أولم يتفكروا في أنفسهم وما خلق السماوات والأرض ومابينهما إلا بالحق وأجل مسمى﴾ [الروم:8]. وقال تعالى: ﴿من أي شيءٍ خلقهُ. من نطفةٍ خلقه فقدّرهُ﴾ [عبس:18-19]. الإنسان أصله من طين، سواه الخالق، ونفخ فيه من روحه، ونسله من ماء مهين، نطفة أمشاج من زوجين، ذكر وأنثى، خلقهما الله من نفسٍ واحدة. وبالرغم من البث والانتشار وتوالي الأجيال والأقوام يظل هذا النسل موصولاً مع وحدة الإنسانية الأولى بعهد الشهود الأزلي على

---

[27] كوكب عامر، **أسس التفكير السليم ومناهجه في الكتاب والسنة**، (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية)، ص24.

ربوبية الخالق الواحد، وبحمل أمانة الاستخلاف واتباع هدي الله. ولهذا يجب على الإنسان أن يتدبر ويتفكر في نفسه، ولا يعاند الفطرة التي فطر الله الناس عليها. فقد أطلع الله نفوس بني آدم على وجوده، وأشهدهم على وحدانيته منذ خلقهم في البداية، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ. أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف:172-173].

إذن هذه الآيات القرآنية تدعو إلى الإجابة على تلك التساؤلات، ولا يمكن الإجابة عليها من غير تفكر وتدبر، وهذا فيه دلالة على أنّ التفكير يتعلق بالظواهر الطبيعية والتاريخية للوجود، والتي لها ارتباط وثيق بحياة الإنسان على هذه الأرض. فالعقل البشري حين يتحرك بالبحث والتنقيب فإنّه يتحرك في مجال الوجود كله بما فيه النفس الإنسانية. يقول الإمام الغزالي: "فلنعدل إلى الأقرب إلى الأفهام، وهي المدركات بحس البصر. وذلك هو السماوات السبع والأرض وما بينهما، فالسماوات مشاهدة بكوكبها وشمسها وقمرها، وحركتها، ودورانها في طلوعها وغروبها، والأرض مشاهدة بما فيها من جبالها ومعادنها وأنهارها وبحارها وحيوانها ونباتها، وما بين السماء والأرض وهو الجو مدرك بغيومها وأمطارها وثلوجها ورعدها وبرقها وصواعقها وشهبها وعواصف رياحها. فهذه هي الأجناس المشاهدة من السماوات والأرض وما بينهما، وكل جنس منها ينقسم إلى أنواع، وكل نوع ينقسم إلى أقسام، ويتشعب كل قسم إلى أصناف. ولا نهاية لانشعاب ذلك وانقسامه في اختلاف صفاته وهيئاته، ومعانيه الظاهرة والباطنة. وجميع ذلك مجال الفكر. فلا تتحرك ذرة في السماوات والأرض من جماد ولا نبات ولا حيوان ولا فلك ولا كوكب إلا والله

تعالى هو محركها، وفي حركتها حكمة او حكمتان أو عشر أو ألف حكمة، كل ذلك شاهد لله تعالى بالوحدانية، ودال على جلاله وكبريائه، وهي الآيات الدالة عليه"[28].

يقول الدكتورعبد الكريم نوفان عبيدات: "إنّ القرآن قد اهتم بالعقل اهتمامًا كبيرًا ووجهه إلى التفكير والتدبر في الميادين المختلفة. فليس محظورًا على العقل أن يمارس نشاطه فيما هو من اختصاصه، وإلا فقد عطلنا هذه الغريزة الربانية، التي جعل الله من خصائصها التفكر، واستنباط الدروس والعبر، والوصول إلى ما ينفع الإنسان في دنياه وأخراه"[29]. فدعوة العقل إلى تدبر آيات الله في الكون هي دعوةللتعرف على قدرة الله المعجزة في الآفاق، وتفرده سبحانه وتعالى بالخلق والتدبير والهيمنة والسلطان، وذلك وصولاً إلى إفراد الله بالوحدانية.

وفي ذلك يقول الشهيد سيد قطب: "إنّ المنهج القرآني في التعريف بحقيقة الألوهية يجعل من الكون والحياة معرضًا رائعًا تتجلى فيه هذه الحقيقة.. تتجلى فيه بآثارها الفاعلة، وتملأ بوجودها وحضورها جوانب الكينونة الإنسانية المدركة ... إنّ هذا المنهج لايجعل وجود الله سبحانه وتعالى قضية يجادل عنها. فالوجود الإلهي يفعم القلب البشري – من خلال الرؤية القرآنية والمشاهدة الواقعية على السواء – بحيث لايبقى هنالك مجال للجدل حوله. إنّما يتجه المنهج القرآني مباشرة إلى الحديث عن مقتضياته كذلك في الضمير البشري وفي الحياة البشرية. والمنهج القرآني في اتباعه لهذه الخطة إنما يعتمد على حقيقة أساسية في التكوين البشري، فالله هو الذي خلق وهو أعلم بمن خلق"[30]. ﴿أَلَا يَعْلَم مَّنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك:14].

---

[28] نقله يوسف القرضاوي، **العقل والعلم في القرآن الكريم**، (القاهرة: مكتبة وهبة)، ص43. وهو في **إحياء علوم الدين** للغزالي، محمد بن محمد أبي حامد، (بيروت: دار المعرفة)، ج4، ص435.

[29] عبد الكريم نوفان عبيدات، **الدلالة العقلية في القرآن ومكانتها في تقرير مسائل العقيدة الإسلامية** ص90.

[30] سيد قطب، **مقومات التصور الإسلامي**، (القاهرة: دار الشروق، ط4)، ص201-202.

إن دليل الألوهية أوضح من أن يُعقَّد بكتابات فلسفية، إنه دليل مغروز في الفطرة، ولا يحتاج إلا ومضة من الذكر ليهتز ويثمر إن سلم القلب. يقول الشهيد سيد قطب: "إن هذه الموجة العريضة الشاملة في مطلع السورة [سورة الأنعام] إنما تخاطب القلب البشري والعقل البشري بدليل "الخلق" ودليل "الحياة" ممثلين في الآفاق وفي الأنفس ... ولكنها لا تخاطب بهما الإدراك البشري خطابًا جدليًّا لاهوتيًّا أو فلسفيًّا! ولكن خطابًا موحيًا موقظًا للفطرة، حيث يواجهها بحركة الخلق والإحياء؛ وحركة التدبير والهيمنة؛ في صورة التقرير لا في صورة الجدل؛ وبسلطان اليقين المستمد من تقرير الله؛ ومن شهادة الفطرة الداخلية بصدق هذا التقرير فيما تراه"[31].

وكذلك التساؤل يقود إلى وحدانية الله تعالى وألوهيته، حيث أنّ حقيقة الألوهية تتجلى في هذا الكون، فهو معرضًا لدلالة الصنعة على الصانع، فالإجابة على التساؤلات القرآنية يقود إلى معرفة الصبغة الإلهية وجمالها وكمالها وتناسقها في هذا الوجود المشهود. ومن روائع القرآن وردت فيه آيات تساؤلية فيها إشارة إلى إعجاز القرآن، ونجد هذا في مثل قوله تعالى: ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ [يونس:38]. وكذلك في مثل قوله تعالى: ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين. فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أُنزل بعلم الله﴾ [هود:13-14].

مما سبق يمكننا القول بأنّ التساؤل يقود إلى زيادة المعرفة الإنسانية، وبسببه تكشفت للمعرفة الإنسانية العلوم الكونية والإنسانية التي تبحث في تصميم الكون وفي نواميسه وفي قواه ومدخراته وفي اسراره وطاقاته لتذكر بخالق هذا الكون، ولتشعر بفضله وجلاله.

---

[31] سيد قطب، **في ظلال القرآن**، ج2، ص461.

4. الإنسان والطبيعة:

يقرر القرآن أن الإنسان خلق من مخلوقات الله، خلق ليعبد الله تعالى وليكون خليفته في عمارة الأرض. يؤكد القرآن أن للإنسان مبدأ ومعاد. فلا هو أزلي في القدم يتطور تلقائيا من كائن أدنى إلى كائن أعلى، ولا هو أبدي في هذه الحياة. هنا يأتي الأسلوب الاستفهامي لتنبيه العقل إلى هذه الحقيقة، من ذلك قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا. إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان:1-2]، والاستفهام هنا للتقرير[32] بمعنى: اذكر أيها الإنسان أنا خلقناك و لم تكن شيئا، أنا خلقناك من شيء حقير لا يقدر على الخلق منه إلا الخالق القادر ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ [مريم:67]، ويبقى السؤال يلاحق كل جاحد ليذكِّره أنه لم يكن شيئا فلابد له من خالق، فمن هو ذلك الخالق؟ ولا يزال هذا الاستفهام يرجُّ صروح البحث الإلحادية، وهي تبحث عن جواب في العلم وحتى في الأساطير! يريح فِطَرهم المتعطشة إلى الحقيقة، ولكن ما إن يبزغ لهم أمل حتى تصفعهم الحقائق الكونية، ولا يزالون في شقوهم حتى يقفوا بين يدي ربهم ليسألهم السؤال مرة أخرى ثم يجيب سبحانه: ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر:16]، ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل:60]، وتبقى أسئلة الخلق تقضّ مضاجع المشركين بالله تعالى وتطلب منهم أن يبدو ماذا بمقدور معبوديهم أن يفعلوه: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [يونس:34]، ﴿هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [لقمان:11].

---

[32] الزمخشري، **الكشاف**، ج4، ص666.

لقد أثبت القرآن أن الله خلق كل شيء، وأحسن كل شيء خلقه ثم أعطى كل شيء هداه الذي يتناسب مع خلقه، ومع ذلك خلق الإنسان في أحسن الصور. والفضل الإلهي لم ينته في الخلق التقويم بل سخر للإنسان كثيرا من مخلوقاته الأخرى وفضله عليها. أبَعد كل ذلك يأتي الإنسان ليكفر النعمة والعناية الربانية، ويجحد الخلق والهدى، ثم يتجرأ على خالقه ومولاه! هنا ينادى القرآن الإنسان ويسائله ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ. الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ. فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاء رَكَّبَكَ﴾ [غافر:6-8]، ﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [النحل:71]، ﴿فَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [النحل:72].

ووجود الإنسان على وجه الأرض ليس صدفة أم عشوائيا، بل خلقه لهدف رباني: ليعبده حينما يمارس وظيفته على الأرض. فالله خالقه ورازقه، فمنه سبحانه وتعالى مبدؤه وإليه معاده: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة:36]، ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ. فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ [المؤمنون:115-116]. هكذا يساءل القرآن الإنسان ويذكره عن مبدئه والغاية من خلقه. والله تعالى لما خلق الإنسان لم يتركه هملا، بل أحاطه بكامل عنايته ولطفه وأسبغه من النعم ظاهرة وباطنة، ولم يظهر فسادٌ إلا بما كسبت أيدي الناس، وهذه العناية من أساسيات النظرة الإسلامية إلى الكون، فالكون مخلوق ليخدم الإنسان لا ليهدده ولا ليعيش معه في صراع وقهر.

وأسلوب السؤال يوجه الإنسان إلى التفكر في تلك العناية فيقوده ذلك إلى شكر النعمة والخضوع للمنعم، فالله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر:3]، فهل من إله غير الله تعالى ينزل الماء من السماء ليحي به الزرع؟ وهل من إله سواه يخلق الزرع تحت الأرض؟ وتتوالى الأسئلة للإنسان: ﴿أَفَرَأَيْتُم ما

تَحْرُثُونَ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنـــزِلُونَ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ [الواقعة:63-73]، يعني أفرأيتم ما تبذرونه من الحب فى الأرض؟ أأنتم تنبتونه أم نحن المنبتون؟ ولو نشاء لجعلناه هشيمًا فتتعجبون من سوء ما أصابه وتندبون حرمانكم وغرمكم. وأفرأيتم الماء العذب الذى تشربون، أأنتم أنزلتموه من السحاب أم نحن المنْزلون؟ لو نشاء جعلناه مالحًا لا يساغ، فهلا تشكرون الله تعالى؟ وهل رأيتم النار التي توقدون؟ أأنتم أنبتم شجرها وأودعتم فيها النار أم نحن المنشئون؟ بل نحن خلقناها تذكيرًا لنار جهنم عند رؤيتها، ومنفعةً للناس[33].

وأسئلة كثيرة تنبه الإنسان إلى عنايته تعالى بهم في البر والبحر، ومن ذلك:

-﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل:61].

-﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل:63].

-﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر:6].

-﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ

---

[33] لجنة من علماء الأزهر، **التفسير المنتخب**، **ج2**، **ص446**.

أَفَلَا تَتَّقُونَ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [يونس:31]، وهو سؤال توبيخ، فكيف تنصرفون عن عبادته وهو الرازق؟

-﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا وَاللَّهُ أَنبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا... ﴾ [نوح:13-20]، فكل تلك النعم تستدعي وقارا للمنعم.

-﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [لقمان:20].

ونظرة التسخير تجعل المسلم متناغما مع الكون تناغما يتدفق على جميع جوانب وعيه وشعوره وتفكيره، ويشعر برابطة قربى بينه وبين الكون، فـ"الإنسان إذن ليس واهما ولا متخيلا خيالا شعوريا حين يحس بالرابطة الوثيقة بينه وبين الكائنات الحية في الوجود من حوله، إنها الحقيقة، ولكنها حقيقة هائلة تفتح للقلب منافذ شتى يطل منها على الحياة، فتتسع مساحتها في نفسه وتعمق أصولها في حسه، ويجد فيها الشعر والفن منفذا يصل بين النفس والكون في أوسع مداه"[34].

5. الغيب والشهادة

الإيمان بالغيب ركن من أركان الإيمان في الإسلام. والقضايا الغيبية التي نجد فيها أسلوب الاستفهام حاضرا تربط الشهادة بالغيب بعدة صور استدلالية، ليؤسس النظرة الإسلامية للكون غير المحدود بالشهادة، بل يمتد بعيدا في الغيب.

فنجد أن السؤال يدفع الفكر إلى قياس الإعادة على البدء، ليمتد نظره ويتجاوز الشهادة إلى الغيب، ومن الآيات الكثيرة في هذا الموضوع وبهذا الأسلوب

---

[34] محمد قطب، **منهج الفن الإسلامي**، (بيروت: دار الشروق، ط6، 1403هـ/1983م)، ص31.

قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ [القيامة:36-40]. فالآية تحتوي على ثلاثة أسئلة؛ سؤالٌ تنبيهي فتذكيري ثم تقريري، فالأول يسائل الإنسان أزعمت أنك لن تُبعث ولكن ألا تذكر أنك كنت نطفة فخلقك بشرا سويا؟ أليس القادر على ذلك قادر على أن يبعثك ثانية بعد الموت؟ ومثله قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ [مريم:66-67].

ويرد السؤال بصيغة أخرى في قوله تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق:15]، فهل أعجز اللهَ تعالى الخلقُ الأول حتى يعجزه الخلق الثاني؟! وهو سؤال يحرك العقول الآسنة بالفكر المادي الذي لا يتجاوز المادة الظاهرة، فيحيلهم الله تعالى إلى ذلك العالم المادي ليروا فيه تجليات الخلق الأول، فكيف ينكرون هذه الحقائق الظاهرة؟

ونجد كذلك التدليل بقياس بعث الإنسان على ما هو أبلغ منه، فإن كان الإنسان غافلا عن خلقه الأول فكيف يغفل عن ما يحيط به في السماء والأرض، والله تعالى يقرر بأن خلق السماوات والأرض أكبر آية على قدرة الله تعالى على الخلق: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر:57]، من هنا ورد الأسلوب الاستفهامي للتوجيه إلى تلك الآيات الكونية المحيطة بنا من كل جانب لإدراك قضية البعث، ويعيننا القرآن الكريم بأسئلته إلى بلوغ المقصود، من ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ

الْخُرُوجُ﴾ [ق:6-11]، في هذه الآية ينبه القرآن الإنسان بأسلوب استفهامي ﴿أفلم ينظروا﴾، ثم يعرض التجليات الكونية للخلق بعد العدم والإحياء بعد الموت، ليختم الآيات بقوله تعالى ﴿كذلك الخروج﴾، ويعني: ومثل ذلك يكون البعث، فالسؤال فيه توجيه إلى النظر والمقارنة والقياس والاستدلال بالشاهد على الغائب، وفي كل ذلك تحريكٌ للعقل ودفعٌ إلى التفكير والاستنتاج، ومثل ذلك قوله:

-﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس:81].

-﴿أَوَلَمْ يرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لاَّ رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء:99].

-﴿أَوَلَمْ يرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير﴾ [الأحقاف:33].

-﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون:92]، وفي هذا السؤال تنبيه إلى مفهوم العبثية الكامن في فكرة اللابعث، وتعالى الله الحكيم عن ذلك، يعني: أفظننتم أنكم مخلوقون عبثا بلا قصد ولا إرادة ولا حكمة[35].

هذه التساؤلات القرآنية تقود إلى ربط عالم الغيب بعالم الشهادة، فالعقل من خلال النظر في قوانين عالم الشهادة يستطيع أن يسلم بعالم الغيب، ولكن تفصيلات هذا العالم يصعب على العقل أن يعرفها من غير طريق الوحي ولذلك فإنّ المعرفة الإنسانية المهتدية بالوحي هي معرفة تربط مابين عالم الشهادة والغيب.

---

[35] ابن كثير، إسماعيل بن عمر، **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، (دار طيبة، ط2، 1420هـ/1999م)، ج5، ص500.

خاتمة البحث

حديث القرآن حديث حول كل ما يهم من أمور الدنيا والآخرة. والرؤية الإسلامية للعالم هي رؤية تحيط بالوجود والحياة في منظور توحيدي كلي، وهي رؤية تتعلق بمعرفة الله الخالق معرفة صحيحة، ومعرفة الوحي المنَزَّل على النبي عليه أفضل الصلاة والتسليم. فرؤية الإسلام للعالم تعني رؤية الحق والحقيقة كما هي قائمة في الوجود، وهي رؤية لعالم الوجود في بعديه: عالم الغيب، وعالم الشهادة. هذا المنهج القرآني التساؤلي يؤكد لنا ضرورة اعتماد الوحي والوجود كمصدرين للمعرفة، مما يميز المنهج الإسلامي عن المنهج الغربي الذي يعتمد الوجود وحده مصدرًا للمعرفة. وهذا التقرير القرآني والذي ورد في أساليب مختلفة ومن ضمنها الأسلوب التساؤلي، يقود إلى الوصول لحقائق هامة في التصور الإسلامي ورؤيته للكون. والتي جعلها دعاة إسلامية المعرفة برنامج عمل لتصحيح مسار الحياة الإنسانية، وإرشادها إلى الطريق المستقيم. إن دعوة القرآن الكريم هذه هي دعوة إلى معرفة موحدة تجمع بين نور الوحي ونور الفطرة، ولذلك فالغرض من توجيه القرآن للإنسان هو إيقاظ الفطرة البشرية بما لديها من استعدادات سليمة للتفكر والنظر من أجل أن تؤمن بوجود ووحدانية الله وربوبيته وخالقيته.

والتساؤلات القرآنية تقود إلى زيادة المعرفة الإنسانية، وهذه المعرفة التي يتعلمها الإنسان بتوجيهات القرآن هي أثر من آثار الله سبحانه وتعالى الخالق العليم، والمعرفة هي من أعظم نعم الله للبشر. وتلك الأسئلة كلها تثير في الإنسان تفكيره المنطقي المبني على الاستنتاج والقياس، لينتقل من الدليل الحسي المشاهد إلى الغيب المستور، وفي هذا بيان لنظرة الإسلام للكون، النظرة التي لا تنحصر في الشهادة بل تمتد إلى الغيب.

إن القرآن الكريم من خلال منهجه التساؤلي يسعى لربط الفكر بالحياة وحركتها، وفي هذا تنبيه إلى أنّ الفكر لابد أن يكون نافعًا، بمعنى أن نفكر من أجل أن نصل إلى شئ يفيدنا إما في أمور دنيانا أو في أمور أخرانا. فالفكر يسبق العمل، وما العمل إلا نتاج للفكر، كما يمكننا القول بأنّ أسلوب الأسئلة والرد عليها هو من الأساليب الهامّة للتربية والتعليم لهذا يجب أن يجد العناية الكافية من قبل المهتمين بشأن التربية والتعليم.